

اللغة العربية في ظل العولمة الثقافية.

تساؤلات حول إشكالية الهوية اللغوية في عصر العولمة

أ. زهراء عاشور

دائرة اللغة العربية - جامعة أم البواقي

الملخص

تعتبر العولمة من إفرازات النظام العالمي الجديد. حيث ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً، بل تعد قوام هذا النظام . والعولمة لها صلة وثيقة بتجديد الغرب لنفسه، وتجديد رؤيته للعالم وفهمه للآخر، وبالتالي العلاقة معه. هذه العلاقة التي انقلبت من القهر المباشر أي الاستعمار والصراع الأيديولوجي في فترة الحرب الباردة وعهود ما بعد الاستقلال في الدول المستعمرة إلى الاختراق في شتى صوره. الغربية ونشر ثقافة اقتصاد السوق ، وثقافة التشيؤ بتحويل كل القيم إلى سلع تباع وتشترى .

لقد جاءت العولمة بتحديات عديدة، فظهر معها الجدل الفكري حول التحدي الذي تفرضه على السيادة الثقافية للدولة القومية وخصوصيتها. ففي الوقت الذي تدعو فيه العولمة إلى تحرير رؤوس الأموال والسلع من الضوابط التي تحد من حركتها، فإنها تدعو إلى إيجاد ثقافة بلا حدود خاصة بعد أن أسهمت التطورات التقنية في مجال المعلوماتية وعلم الاتصال في تحقيق التزاوج بين التقنية والثقافة . ومنه تحولت الثقافة إلى سلعة يسهل تبادلها بين الدول والشعوب. لذا نجد الغرب على وجه العموم ، والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص التي تملك أكبر إنتاج ثقافي وإعلامي في العالم، تسعى إلى توظيف ذلك من أجل نشر نموذجها في الحياة على حساب ثقافات الشعوب المختلفة التي دخلت في مازق.

إن أخطر ما ستعانيه الثقافات في ظل العولمة هو التهميش. و بما أن اللغة مكون رئيس من مكونات الثقافة فإنها ستعاني بدورها من التهميش أمام لغة الطرف المهيمن. فرياح العولمة حملت في ثناياها إسقاط الحواجز اللغوية تمهيدا لفرض سيادة اللغة الانجليزية، لغة الدولة التي تفردت بالهيمنة على العالم.

إن بعد العولمة يفرض على اللغات الضعيفة الانقراض، خاصة أنه من المتوقع أن يقلص في ظلها عدد لا بأس به من اللغات حيث يشير د/ محمد نبيل نوفل ، أن عدة آلاف من اللغات يتوقع أن تختفي ، 90% منها خلال القرن المقبل أي القرن الحادي والعشرين ميلادي بحيث لا يبقى سوى ما يتراوح ما بين 250 إلى 600 لغة . الأمر الذي يجعل مسألة التعدد اللغوي تطرح بإلحاح في ظل العولمة التي تسعى إلى هيمنة لغة واحدة ، لغة الطرف الأقوى.

فلقد بات واضحا أن العالم يواجه على جبهة اللغة موقفا مصيريا، كما يشير إلى ذلك مدير منظمة اليونسكو ،إما أن يتمسك بتعدد لغاته، وما ينطوي عليه ذلك من صعوبة التواصل وإعاقة تبادل المعلومات والمعارف، وإما أن تتوحد لغات العالم في لغة قياسية واحدة الإنجليزية في أغلب الظن .وساعتها تكون قد حلت بالبشرية الطامة الكبرى على حد تعبير مدير منظمة اليونسكو في لقاء باللغة العربية كآية لغة تتأثر بالأحداث العالمية، و منه فهي تواجه اليوم تحديات خطيرة. فهل ستصمد لغة الضاد في ظل العولمة العابرة للقوميات والألسنة عن طريق المعلوماتية و التكنولوجيا العملاقة ؟

مقدمة:

تعتبر اللغة العربية جزءا من الهوية العربية الإسلامية، حيث اكتسبت بفضل الإسلام بعدا دينيا تجلى في كل مظاهر الحياة الدينية عند العرب وعند غيرهم من الأقوام والشعوب التي أسلمت، فأصبحت بذلك لغة التعبير عن الإرادة الإلهية والفعل الإنساني.

وإذا كانت اللغة العربية في ظل الحضارة الإسلامية قد عرفت ازدهارا كبيرا، حيث وصلت إلى العالمية، إذ كانت الشعوب تتهاافت عليها للتزود بالعلوم والفنون وأسباب الرقي، فإنها في الوقت الراهن تعيش تدهورا على مستويات كثيرة، لاسيما في ظل المتغيرات الدولية الجديدة أو ما اصطلح على تسميته " بعصر العولمة" الذي باتت فيه هويات الشعوب الثقافية، لاسيما الهوية اللغوية مهددة بالتراجع إن لم نقل بالزوال والاندثار.

فاللغة العربية اليوم، تواجه تحديات كبيرة فرضتها " العولمة " بضغوطاتها التكنولوجية والأيديولوجية. لاسيما وأن اللغة العربية تقتقر إلى سياسة تقنية، وليس للعرب والمسلمين مشروع حضاري واضح المعالم ترتقي وتتقدم في ظلّه فتكون لغة العلوم والتقنيات.

كما أن ثقافة العولمة تسعى إلى إلغاء الحواجز اللغوية، ومحاصرة اللغات والثقافات المحلية في سبيل إحلال لغة عالمية وثقافة عالمية. فهل ستكون اللغة العربية في مستوى هذه التحديات؟

أولا: تساؤلات حول العولمة

تعتبر العولمة من إفرازات النظام العالمي الجديد، حيث ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً، بل تعد قوام هذا النظام. والعولمة لها صلة وثيقة بتجديد الغرب لنفسه، وتجديد رؤيته للعالم وفهمه للآخر، وبالتالي العلاقة معه. هذه العلاقة التي انقلبت من القهر المباشر أي الاستعمار والصراع الأيديولوجي في فترة الحرب الباردة وعهود ما بعد الاستقلال في الدول المستعمرة إلى الاختراق في شتى صوره.

والعولمة من الناحية اللغوية، هي ترجمة لكلمة "Mondialisation" في اللغة الفرنسية، وكلمة "Globalisation" في اللغة الإنجليزية، وقد شاع هذا المصطلح في العقد الأخير من القرن العشرين الميلادي، حيث يشير إلى تعميم المحلي أو الوطني ليصبح حالة عالمية.

وإن كان البعض يرى أن العولمة بالمفهوم المتداول الآن وبعد سقوط نظام القطبين، واندثار "العالم الثالث" لم تعد منسوبة ومنذ عقدين تقريباً إلى كلمة "Globe" - كوكب الأرض، أو Globalisation - كوكبة، بل تصبح العولمة العملية هي ترجمة لكلمة Globality، وهي العملية التي تملك آليات التطبيق أي تحويل العالم إلى شكل موحد يلغي الحدود بين الدول والأمم¹.

¹ د/ أحمد مجدي حجازي، إشكاليات الثقافة والمتقف في عصر العولمة. دار قباء. القاهرة. مصر. سنة 2008. ص 22

أما من الناحية الاصطلاحية، فقد تعددت وتتوعدت تعاريف العولمة، لاسيما في الدائرة العربية والإسلامية. وهذا نظرا لاختلاف الرؤى حولها، ولتعدد مجالات العولمة في حد ذاتها. وإن كان الكثير، يرى أن العولمة كمصطلح² متداول اليوم- كما يشير إلى ذلك محمد محفوظ، ينتمي إلى عالم الغلبة الحضارية الذي طرح هذا المشروع كوسيلة لتعميم غلبته ومشروعه السياسي والاقتصادي والثقافي والحضاري. فاعتبر التقدم الغربي تقدما للجنس البشري، وتم اختزال التجربة عبر التاريخ في تجربة الإنسان الأبيض فقط. وكان تأكيد الفروقات والتمايزات بين البشر هو مسوغ السيطرة والهيمنة على مقدرات الشعوب الأخرى وثرواتها. إذ يبدو ضروريا خضوع الإنسان البدائي للإنسان الأبيض محتكر الحضارة، وإلغاء تاريخ الأمم والشعوب جانبا، وجعل لواء العولمة والكونية والترسانة الإعلامية والثقافية والأيديولوجية الغربية، تمارس التضييل في هذا المجال، إذ العولمة التي يتم المناداة بها، ما هي إلا تأكيد لقواعد السيطرة

² أول من أطلق مصطلح "العولمة" معرفيا هو عالم السوسيولوجيا الكندي، مارشال ماك لوهان. أستاذ الإعلاميات السوسيولوجية في جامعة تورنتو. عندما صاغ في نهاية الستينات مفهوم القرية الكونية في كتابه: الحرب والسلام في القرية الكونية. (marshall, mclhan. War and peace in the global village. Hill book company. 1969 Newyork.usa)

والهيمنة المعمول بها في عهود الاستعمار المباشر³. وقد ذهب المختلفون في تحديد مفهوم العولمة في اتجاهات أربعة هي:

.الاتجاه الأول: يراها حقيقة تاريخية.

- **الاتجاه الثاني:** يراها مجموعة تجليات لظاهرة اقتصادية.

- **الاتجاه الثالث:** يراها هيمنة للقيم الأمريكية.

- **الاتجاه الرابع:** يراها ثورة تكنولوجية⁴

وإن كان علم الاقتصاد يعد أسبق فروع العلم في الكشف عن مقومات ظاهرة العولمة وخصائصها، ورصد تأثيراتها الآنية والمستقبلية. حيث أسفرت إسهامات علماء الاقتصاد في هذا المجال - كما تشير د/ عواطف عبد الرحمان، إلى بروز رؤيتين وهما:

1- رؤية تقليدية.

2- رؤية نقدية ذات منظور تاريخي.

فأما الرؤية التقليدية " فترى أن مصطلح العولمة يشير إلى تحول العالم إلى منظومة من العلاقات الاقتصادية المتشابكة التي تزداد عمقا

³ محمد محفوظ، الإسلام- الغرب وحوار المستقبل. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب. ط(1). سنة 1998. ص 2

⁴ راجع : محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية. مجلة " المستقبل العربي" بيروت- لبنان . عدد (228). فيفري 1998م. من ص 14 إلى ص 22

من خلال تحرير التجارة الدولية وتشجيع تدفقات رؤوس الأموال وتيارات هجرة العمالة عبر الحدود وانتشار استخدام التكنولوجيا وشبكات المعلومات والتيارات الثقافية العابرة للحدود والتحويل للقطاع الخاص فيما يعرف بسياسة الخصخصة⁵.

أما الرؤية النقدية ذات المنظور التاريخي، " فيرى أصحابها أن العولمة ليست ظاهرة جديدة وأنها بدأت منذ القرن السابع عشر أو قبله بقليل مع بدء عملية الاستعمار الغربي لآسيا وإفريقيا والأمريكيتين، مقترنة بتطور النظام التجاري الحدي في أوروبا نفسها. فالتاريخ الاقتصادي للعالم هو تاريخ توسيع الأسواق ورفع الحدود والحواجز والثورة الصناعية بشكلها التقليدي كما ظهرت في منتصف القرن الثامن عشر في إنجلترا ثم انتشرت في أوروبا في العقود التالية. بدأت هذه الثورة تدخل مرحلة جديدة من مسيرة التطور التكنولوجي اعتباراً من ستينات القرن العشرين الميلادي حيث انتقل مركز الثقل في الثورة التكنولوجية إلى مجال المعلومات ثم الاتصالات، ولم يعد الأمر متعلقاً فقط بإنتاج المزيد من السلع والأشياء، بل أصبح الأمر متعلقاً أيضاً بتداول

⁵ د/ عواطف عبد الرحمان، الإعلام العربي وقضايا العولمة. العربي. القاهرة. مصر. ط(1). سنة 2003م. ص 12.

المعلومات ومعالجتها ونقلها والانتقال من اقتصاد السلع العينية إلى اقتصاد المعلومات⁶.

إن مصطلح العولمة وإن كان مصطلحا حديثا، ارتبط سياقه الفكري والتاريخي بانتهاء المعسكر الشيوعي وانفراط المنظومة الاشتراكية مع سقوط الإتحاد السوفياتي، فالعولمة قديمة كظاهرة، بمعنى أن التاريخ البشري قد عرف هذه الظاهرة. لكن في تجليات مختلفة، إذ لكل عصر طبيعته ومعطياته. وهذا ما يشير إليه د/ حسن حنفي بقوله: "العولمة ليست ظاهرة جديدة، بل قديمة قدم التاريخ، عندما تنصدر حضارة ما لباقي الحضارات وتقود العالم. فالعولمة ليست ظاهرة اقتصادية أو سياسية أو تقنية أو معلوماتية فحسب، بل هي ظاهرة تاريخية مستمرة"⁷.

وإذا كان ظهور العولمة، قد ارتبط تاريخيا بسقوط الإتحاد السوفياتي. فإنها فلسفيا وفكريا، قد ارتبطت بالعديد من النظريات والأفكار، مثل: تعميم الليبرالية الغربية على العالم وخطابات النهايات⁸ -

⁶ د/ عواطف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 13

⁷ د/ حسن حنفي وصادق جلال العظم، ما لعولمة؟ دار الفكر المعاصر. بيروت - لبنان. دار الفكر - دمشق - سوريا. ط (1). سنة 1999، ص 16 و 17

⁸ مثل: Fukuyama. Francis, the end of history and the last man. new

york. The free press. 1992.

- kenichi ,ohmae, the end of the nation the state: the rise of regional economics. Newyork. The free press. 1995.

-Guette nno (j.m), la fin de la democratie, paris. Flammarion. 1993.

نهاية التاريخ، نهاية الإنسان، نهاية الدولة، نهاية الأيديولوجية، نهاية الديمقراطية إلخ.

مما جعل العولمة تتعدى البعد الاقتصادي إلى أبعاد أخرى، لاسيما البعد الثقافي، الأمر الذي أدى إلى ردود أفعال كثيرة ضد هذه الظاهرة، وطرح تساؤلات عديدة حولها. لاسيما بالنسبة لشعوب العالم الثالث. حول إشكالية العلاقة بين العولمة والهوية؟ وما تأثير العولمة في الهوية الثقافية للشعوب؟ وما العلاقة بين الكونية والخصوصية في ظل العولمة؟ وهل ستصبح الثقافات المحلية موحدة على مستوى العالم؟ وباعتبار العولمة معطى واقعيا لا مفر منه، كيف يجب التعامل معه؟

والحقيقة أن العولمة بأبعادها المعقدة والمتشابكة، لا تزال تطرح حولها العديد من التساؤلات. سواء حول مفهومها وماهيتها وطبيعتها وتجلياتها، أو حول أبعادها وتأثيراتها في الآخر على المدى القريب والمدى البعيد. وعلى الرغم من الكم الهائل من المؤلفات التي ألفت حولها، والندوات والمؤتمرات التي عقدت لمناقشتها. إلا أنه يبقى من الصعوبة بمكان تحديد كل جوانبها، لأنها " ظاهرة مازالت قيد التشكيل والتكوين والصنع، مما يعني بالتالي. أولا: أنها مازالت قيد الوصف والرصد والدرس والتحليل والتفسير في كل مكان، وثانيا: أن كل شيء

- M C. Kibben (bill), the end of nature, newyork, randon house. 1989.

عنها وحولها مازال حتى اللحظة موضع سجال ونقاش وجدال وفرضيات⁹.

ولعل هذا التعقيد هو الذي جعل ردود الأفعال حولها تختلف. لاسيما في الدائرة العربية والإسلامية بين مؤيد لها ومشجع عليها، وبين رافض لها ومنفر منها، لما يراه كل طرف من انعكاساتها سواء أكانت إيجابية أم سلبية. ويبقى " البحث عن مقارنة مسؤولة مدروسة وموضوعية للعولمة، بعيدا عن محض التغني بها من ناحية، ومحض التفجع منها من ناحية ثانية، ومحض الاكتفاء بوصفها ظواهر من ناحية ثالثة¹⁰ أمرا في غاية الأهمية والضرورة.

ثانيا: العولمة و الهوية الثقافية للشعوب

لقد أصبح موضوع الهوية في الوقت الراهن أحد المواضيع الأساسية التي تتصدر النقاشات. حيث تزايد الاهتمام بها مع تزايد التحديات التي تفرضها العولمة على الشعوب. ذلك أن الهوية في رأي الباحثين والمفكرين "آلية دفاعية متينة تحمي أصحابها من غزو العولمة المتوحشة، ومن هيمنة الثقافة الواحدة"¹¹.

⁹ حسن حنفي وصادق جلال العظم، المرجع سابق، ص 61 و 62

¹⁰ المرجع نفسه، ص 80 و 81

¹¹ راجع : Ed. Edgar morin et Sami Nair, une Politique De civilisation. Arlea. Paris. France. 1997 p 15- p 17

وهوية الأمة، كما يعرفها د/ أحمد بن نعمان هي: " مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة والتي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عن سواهم من أفراد الأمم الأخرى"¹²، أما د/ عبد المجيد النجار، فيرى أن هوية الأمة هي حقيقتها المميزة لها، حيث تتشكل من عنصرين أساسيين، وهما: نمط العلاقة الرابطة بين الأفراد، والمنطلق الأيديولوجي الذي أنتج ذلك النمط. فهذان العنصران هما اللذان يعطيان لكل أمة حقيقتها التي تتميز بها عن الأمم الأخرى، ويكون بها تشخصها في الواقع، وسيرورتها في التاريخ¹³.

وعلى الرغم من الاختلاف في تحديد مفهوم العولمة، فإن الباحثين لا يختلفون في مدى تهديدها للهوية القومية. فالعولمة، تعبر عن تناقضات الفكر الرأسمالي المعاصر في فترة ما بعد الحداثة، وتمثل نمطا للهيمنة الغربية ونشر ثقافة اقتصاد السوق وثقافة التسيؤ بتحويل كل القيم إلى سلع تباع وتشتري.

لقد جاءت العولمة بتحديات عديدة، فظهر معها الجدل الفكري حول التحدي الذي تفرضه على السيادة الثقافية للدولة القومية وخصوصيتها. ففي الوقت الذي تدعو فيه العولمة إلى تحرير رؤوس الأموال والسلع من

¹² د/ أحمد بن النعمان، الهوية الوطنية. دار الأمة. الجزائر. سنة 1996م . ص 23

¹³ د/ عبد المجيد النجار، صراع الهوية في تونس. شركة ديجيتال. تونس. ص 13

الضوابط التي تحد من حركتها، فإنها تدعو إلى إيجاد ثقافة بلا حدود خاصة بعد أن أسهمت التطورات التقنية في مجال المعلوماتية وعالم الاتصال في تحقيق التزاوج بين التقنية والثقافة: "والثقافة بوصفها منتجا اجتماعيا، أصبحت جزءا من العملية الاقتصادية- التجارية الجديدة أسوة بغيرها من السلع والمنتجات المادية إذ تحررت من القيود الجمركية، وأصبحت قابلة للتداول على أوسع نطاق في السوق العالمية. وتخضع لنفس الإجراءات والأحكام المفروضة على سواها من السلع المادية، غير أن مجال المنافسة في تسويق هذه السلع أصبح محدودا للغاية وغير متاح إلا للقوى الرئيسة المسيطرة على تكنولوجيا الاتصال وتكنولوجيا صناعة المعلومات وتشكيل العقول وأنماط التقاليد والسلوك. الأمر الذي يشير إلى أن التبادل الثقافي العالمي الجاري حاليا في ركاب التجارة الحرة، هو تبادل غير متكافئ يتغذى من التفاوت والخلل الرهيب في توازن القوى الثقافي على الصعيد العالمي بين ثقافات مسلحة بالتكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية وبين ثقافات أخرى مجردة من أية حماية تكنولوجية أو تشريعية مما يحول دون إمكانية خلق التفاعل المتوازن بين الثقافات والشعوب والمجتمعات. وهنا يبرز الوجه الحقيقي لما يسمى

بثقافة العولمة التي لا تعني في جوهرها سوى السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات¹⁴.

ومع تحول الثقافة إلى سلعة يسهل تبادلها بين الدول والشعوب، نجد الغرب على وجه العموم، والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص التي تملك أكبر إنتاج ثقافي وإعلامي في العالم، تسعى إلى توظيف ذلك من أجل نشر نموذجها في الحياة على حساب ثقافات الشعوب المختلفة التي دخلت في مأزق. لذلك يعتقد د/ برهان غليون، أن مفعول العولمة على مختلف الثقافات بدأ يفرز خمسة توجهات يمكن لها مع الوقت أن تقلب المعالم الجيوثقافية للعالم:

- 1- الترابط بين الثقافة والاقتصاد من خلال تأثير الرأسمالية العالمية والقيم الاستهلاكية في القيم الثقافية لكل الشعوب، ما يؤدي إلى تنميط الثقافات وإفراغها من إشعاعها وحيويتها.
- 2- العلاقة الجديدة بين الثقافة والجيوسياسية من خلال تركيز العديد من المحللين على حرب الثقافات كعامل حاسم في العلاقات الدولية.

¹⁴ د/ عواطف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 17 و 18.

3- العلاقة بين الثقافة والسياسة، فتشكل ثقافة عالمية تقلص من نفوذ الدول ودورها في التفاعل الدولي، ومن تحكمها في الولاءات الوطنية و السياسية.

4- العلاقات بين الثقافات والتي تتراوح في تفاعلها بين الهيمنة، الإحباط والتهميش والثقافات المحيطة تعيش أزمة حقيقية بفعل هيمنة الثقافة الرأسمالية العالمية وتحكمها في منابع المعنى والإنتاج الثقافي.

5 . العلاقة بين الثقافة والمجتمع: إن اندماج طبقة من النخب العالمية في ثقافة عالمية أدى إلى اضطراب وفراغ المعنى داخل الثقافات الوطنية وداخل قطاعات شاسعة من المجتمعات الإنسانية. وهذا ما يفرز بعض أشكال البربرية حتى داخل المراكز الحضارية الكبرى¹⁵.

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل نحن أمام ظاهرة التوحيد الثقافي؟

¹⁵ محمد سعدي، مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان- ط(1). يونيو 2006م . ص 275 و 276

يرى البعض أن العولمة تشكل تهديدا للتنوع الثقافي، إذ ستؤدي إلى ظاهرة التوحيد الثقافي- كما يسميها د/ تركي الحمد¹⁶، أي إلى سيادة ثقافة عالمية واحدة تكون هي المرجع والمحور لكل الشعوب. لكن الحقيقة، أن العولمة لن تؤدي إلى التوحيد الثقافي، ولا إلى الثقافة العالمية. لأن التجانس الثقافي يستحيل تحقيقه، والوصول إلى ثقافة عالمية ضرب من المستحيل أيضا. وهذا ما يؤكدّه الغربيون أنفسهم، حيث يشير كلود ليفي شتراوس أن الوصول إلى ثقافة عالمية، وحضارة عالمية بالمعنى المطلق لا يمكن تحقيقه: "إن فكرة الحضارة العالمية يمكن تقبلها كنوع من مفهوم مجدد، أو خلاصة مصغرة لعملية شديدة التعقيد لا توجد ولا يمكن أن توجد حضارة عالمية بالمعنى المطلق، طالما أن الحضارة تتضمن وتتكون في الواقع من تعايش ثقافات تعرض أقصى ما يمكن من التنوعات. والثقافة العالمية يمكن في الحقيقة ألا تمثل أكثر من تآلف عالمي النطاق من الثقافات كل منها يحتفظ بأصالته"¹⁷ وهذا طبعا ما لا يريده الغرب.

¹⁶د/ التركي الحمد، هوية بلا هوية- نحن و العولمة. ورقة مقدمة لمؤتمر القاهرة . مصر. ابريل 1998م ، بعنوان: العولمة وقضايا الهوية الثقافية. صحيفة " المدينة". السعودية، ملحق (الأربعاء) 15 أبريل 1998م

¹⁷ التنوع الإنساني المبدع، تقرير اللجنة المعنية بالثقافة العالمية والتنمية. تحرير: خافيدي كويلار. منشورات اليونسكو. الطبعة العربية. القاهرة. مصر. مركز مطبوعات اليونسكو. سنة 1996م، ص 28

إن أخطر ما ستعانيه الثقافات في ظل العولمة هو التهميش. فالعولمة إرادة لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته الثقافية: "والاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة يريد إلغاء الصراع الأيديولوجي والحلول محله من خلال محاولة السيطرة على الإدراك عبر الصورة السمعية البصرية التي تسعى إلى تسطيح الوعي وجعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي مثير للإدراك ومستفز للعواطف وحاجب للعقل¹⁸.

وبما أن اللغة هي أقدم تجليات الهوية، ومكون رئيس من مكوناتها. فإنها ستعاني بدورها من التهميش أمام لغة الطرف المهيمن، فرياح العولمة حملت في ثناياها إسقاط الحواجز اللغوية تمهيدا لفرض سيادة اللغة الانجليزية، لغة الدولة التي تفردت بالهيمنة على العالم. وهذه التحديات الثقافية، لاسيما اللغوية منها. لن تعاني منها دول الجنوب فحسب، بل أيضا ثقافات ولغات دول الشمال، جاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية الصادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، أنه ليست دول الجنوب وحدها التي ثقافتها مهددة. فالثقافات

¹⁸ د/ عواطف عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 17

الأخرى جميعا تعاني من الوضع نفسه، وهذا يعني أن ثمة أزمة ثقافية عالمية تريد القضاء على التنوع الثقافي في سبيل نمطية ثقافية واحدة¹⁹. وهذا ما تشير إليه بعض الدراسات الأوروبية، حيث تعاني الثقافات الأوروبية نفسها من الحصار أمام الوافد الدخيل الأمريكي، حيث أورد د/ إلياس فرح ما جاء في بعض هذه الدراسات، ومنها دراسة إدوار غاليتو التي يرى فيها أن العولمة ستقلب الأمور، إذ تحل الأسواق محل الشعوب، والمستهلكين محل المواطنين، والمشروعات الصناعية محل الأمم، والتجمعات محل المدن، والمزاحمة التجارية محل العلاقة الإنسانية. ثم إن العولمة تصميم قسري لنموذج معادي للتعددية والتنوع الثقافي، يلغي التمايز والشخصية الثقافية، ويروج عن طريق وسائل الإعلام لقيادة قوانين السوق وقيم المجتمع الليبرالي الرأسمالي وفرض ديكتاتورية الكلام الوحيد والصورة الوحيدة والنمط الواحد من الحياة، ويحول الإنسان إلى مجرد مستهلك مستسلم ومشاهد متلق، يتم تصنيفه وترويضه جماعيا وعلى مستوى العدد.

أما دراسة إدكار بيزاتي، فقد أورد فيها دعوته إلى رفض العولمة، رافعا شعار "لنقف معا ضد العولمة"، لأنها . في رأيه . تتجاهل العلاقة

¹⁹ الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس. دار

الثقافة. تونس . ط (2)، 1997م. ص 130

بين الدولة والأمة والأرض والوطن واللغة والثقافة... وإذا قيل للفرنسيين إن بناء أوروبا ينبغي أن يؤول إلى زوال الأمة الفرنسية، فإنهم لن يقبلوا لأنهم يتطلعون إلى مستقبل يتحقق فيه التوازن والتكامل، بين ما هو سياسي وما هو ثقافي، ومحصن ضد العولمة التي تخلق وحدة زائفة تتجاهل التعددية والتنوع²⁰.

ولعل هذا ما جعل أوروبا، وعلى الأخص فرنسا تعبر عن احتجاجها بمناسبة مفاوضات الجات ودفاعها عما بات يعرف باسم (الاستثناء الثقافي)، على الرغم من أن ثقافات أوروبا تنتمي إلى حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية سواء في أصولها الأوروبية أو امتداداتها الأمريكية.

كما جعل فرنسا تنشئ وزارة الفرنكوفونية لحماية اللغة الفرنسية، إضافة إلى تأسيس منظمة الفرنكوفونية. حيث يشير أمينها العام د/ بطرس غالي بطرس، أن هذه الفرنكوفونية ليس لحماية اللغة الفرنسية فحسب، بل للدفاع عن التعددية الثقافية واللغوية أيضاً، فاللغات في رأيه بمثابة التراث الإنساني، وثراء المجتمع الدولي قائم على تلك التعددية. فلو سيطرت لغة واحدة على المجتمع الدولي، فإن ذلك سيؤدي إلى إضعاف اللغات الأخرى. وهذا خطأ كبير وخطير، وكما أن هناك

²⁰ د/ إلياس فرح، مقال: الهوية و الخصوصية والعولمة. مجلة "آفاق عربية". عدد (7) و

(8). 1998م. ص 28

منظمات دولية أنشئت للدفاع عن البيئة وعن بعض الحيوانات وبعض النباتات، يجب أيضا الدفاع عن الحضارات وعن الثقافات، عن التعددية الحضارية وعن التعددية الثقافية²¹.

إن بعد العولمة يفرض على اللغات الضعيفة الانقراض، خاصة أنه من المتوقع أن يتقلص في ظلها عدد لا بأس به من اللغات حيث يشير د/ محمد نبيل نوفل، أن عدة آلاف من اللغات يتوقع أن يختفي 90 % منها خلال القرن الحالي أي القرن الحادي والعشرين الميلادي، بحيث لا يبقى سوى ما يتراوح ما بين 250 إلى 600 لغة²²، الأمر الذي يجعل مسألة التعدد اللغوي تطرح بالحاح في ظل العولمة التي تسعى إلى هيمنة لغة واحدة، لغة الطرف الأقوى.

فلقد بات واضحا أن العالم يواجه على جبهة اللغة موقفا مصيريا- كما يشير إلى ذلك مدير منظمة اليونسكو- إما أن يتمسك بتعدد لغاته، وما ينطوي عليه ذلك من صعوبة التواصل وإعاقة تبادل المعلومات والمعارف، و- إما أن تتوحد لغات العالم في لغة قياسية واحدة،

²¹ د/ بطرس غالي بطرس، هدف الفرانكفونية الدفاع عن التعددية الثقافية. لقاء العدد.

إعداد: سوسن حسين. مجلة السياسة الدولية. عدد (133). سنة 1998م. ص 154

²² د/ محمد نوفل، رأي المستقبل: المجتمع والتعليم في القرن الحادي والعشرين الميلادي. المجلة العربية للتربية. تونس. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. المجلد (17). عدد

(1). سنة (1). 1997م. ص 204

الإنجليزية في أغلب الظن. وساعتها تكون قد حلت بالبشرية الطامة الكبرى، على حد تعبير مدير منظمة اليونسكو في لقاء " دافوس"²³، لاسيما وأن ثقافة العولمة تتوسع في ظل تصاعد الثقافة المرئية التي تعتمد بصورة أساسية على وسائل الإعلام والاتصال المتطورة، وتكنولوجيا المعلومات التي تخترق جميع القارات بلغة الطرف المهيمن. وهذا في ظل تراجع الثقافات المحلية، لاسيما المكتوبة منها. وفشل بعض الأنظمة الثقافية التقليدية لشعوب العالم الثالث.

وعندما نتأمل الخريطة الثقافية الراهنة للعالم، نقف على حقيقتين وهما: عولمة الثقافة الأمريكية على العالم بما فيه أوروبا. وسيطرة اللغة الإنجليزية. وقد أدى ذلك إلى تنافس حاد بين الثقافتين الأنجلوساكسونية والفرنسية، وبين اللغتين الانجليزية والفرنسية.

والثقافة العربية الإسلامية بمقوماتها الأساسية الدين (الإسلام) واللغة (العربية)، تواجه اليوم تحديات خطيرة. لاسيما وأن العولمة تسعى إلى إيجاد لغة عالمية وديانة عالمية. فاللغة والدين مقصدان للعولمة، يؤكد على ذلك الكثير من المفكرين الغربيين، منهم صموئيل هنتنغتون²⁴ حيث

²³ راجع : تقرير التنمية الإنسانية العربية عام 2002 م. برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. الأردن. ص 74

²⁴ من أبرز السياسيين والمفكرين الاستراتيجيين الأمريكيين المعاصرين. وصاحب نظرية " صدام الحضارات". ولد في 18 أبريل 1927 بنيويورك .مدير معهد جون أولن (John

يقول: " اللغة والدين هما العنصران المركزيان لأية ثقافة أو حضارة. وإذا كانت هناك حضارة آخذة في الانبثاق، فإنه ينبغي أن توجد اتجاهات نحو انبثاق لغة عالمية وديانة عالمية"²⁵. أما الديانة فيقصد بها العقيدة الليبرالية، وأما اللغة فيقصد بها اللغة الإنجليزية. حيث يقول: " إن لغة العالم هي اللغة الانجليزية"²⁶.

فهل ستصمد لغة الضاد في ظل العولمة العابرة للقوميات والألسنة عن طريق المعلوماتية والتكنولوجيا العملاقة؟ وما هو مستقبل ومصير اللغة العربية في ظل العولمة؟

ثالثاً: اللغة العربية بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة

olin) للدراسات الإستراتيجية منذ 1989م، ورئيس أكاديمية هارفرد للدراسات الدولية والإقليمية منذ 1996م. وهي المناصب التي ما زال يشغلها حالياً، إضافة إلى تدريسه في جامعة هارفرد (Albert weather head II) كتب في مجالات عديدة، منها: السياسة الحربية، والإستراتيجية وسياسة الدول النامية (راجع: www. Gov . Harvard. Edu)

²⁵ صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي. ترجمة: د/ مالك عبيد أبو شهيوه و د/ محمود خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. ليبيا. ط (1). 1429هـ/ 1991م. ص 133

²⁶ صموئيل هنتنغتون، المرجع نفسه ، ص 133

تواجه اللغة العربية في الوقت الراهن تحديات كبيرة فرضها "عصر العولمة" وما حدث فيه من تطورات تكنولوجية وأيديولوجية. إضافة إلى التحديات التي فرضتها قرون التراجع الحضاري التي مرت بها الأمة العربية والإسلامية، فسلبت اللغة العربية قوتها وقدرتها على المنافسة.

ففي ظل العولمة، يتجاذب اللغة العربية طرفان، هما: ضغوطات العولمة التكنولوجية، لاسيما وأن اللغة العربية تفتقر إلى سياسة لغوية تقنية تساعد على الانتشار شأن اللغة الانجليزية. حيث أصبحت تكنولوجيا الاتصال الحديثة تعتمد في معظمها عليها. فأصبحت اللغة العربية بذلك عالة على اللغات الحديثة التي نالت المكانة العلمية بفضل الفكر العلمي والرياضي الذي سيطر على نخبها ومفكرها، وبالتطبيقات التقنية التي مست منظومتها الفكرية.

إن التقدم المذهل والتطور المتسارع لوسائل الإعلام والاتصال الذي عرفه عصر العولمة، والأجيال المتعاقبة للحاسوب، والدخول في عصر الشبكة العالمية للمعلومات "الإنترنت"، و الترجمة الآلية وغيرها. أدى إلى حدوث ثورة معلوماتية وعلمية كبرى أوجدت بدورها تحديات لغوية وعلمية للغات. حيث أصبحت قضية علاقة اللغة بالمعلوماتية تشكل تحدياً أساسياً للغة العربية في هذا العصر. لاسيما أن قضية معالجة اللغات آلياً قضية شديدة التعقيد.

وإذا كانت الدراسات المعاصرة تقدر التدفق الإعلامي عبر شبكة الإنترنت باللغة الإنجليزية 88% وبالألمانية 9% وبالفرنسية 2% ويبقى الباقي 1% لباقي اللغات، فإننا نطرح سؤالاً وجيهاً : أين موقع اللغة العربية من هذه الشبكة؟

أما الطرف الثاني فهو ضغوطات العولمة الأيديولوجية التي تسعى إلى تهميش الثقافات الأخرى، وإلى إلغاء الحواجز اللغوية لصالح لغة الطرف المهيمن. والعمل على إلحاق الثقافات المحلية بمقوماتها اللغوية بثقافة العولمة أمر مخطط له، ففي العالم العربي أزيحت اللغة العربية من أكثر من موقع لتحل محلها اللغة الأجنبية. لاسيما اللغة الانجليزية التي أصبحت لغة العلم والاقتصاد والسياحة وأيضاً الإعلام والدعاية. حيث يبدو ذلك جلياً في بعض المؤسسات العربية سواء أكانت رسمية أم غير رسمية، إن لم يكن كلياً فبعض المصطلحات. ويلعب الإعلام دوراً بارزاً في هذا الاختراق الثقافي الذي أدى بدوره إلى التراجع اللغوي. حيث يرتسم هذا التحدي الإعلامي في صور وملاح كثيرة، وهو أخطر أنواع التحدي. ذلك أن ثقافة العصر في مجملها تبدو مختزلة ومختصرة في الإعلام المتدفق في كل مكان. إذا كانت ثقافة العولمة هي ثقافة الهيمنة التي تسعى إلى إقامة ثقافة عالمية عولمية اندماجية قائمة على تهميش الثقافات الأخرى، بما فيها

مقوماتها اللغوية. فإن التساؤل الذي يطرح نفسه: هل هناك من سبيل لرد هذا التحدي العولمي الثقافي؟

ما لا شك فيه، أن التفوق أمر غير ممكن. لاسيما وأن العولمة تمتلك آليات تحويل العالم إلى قرية صغيرة وموحدة. فلم يبق سوى التفعيل داخلها، والعمل على التنوع الثقافي في إطارها والتعامل معها من موقف الثقة بالنفس. لهذا يرى البعض أن الرد على ثقافة العولمة لا يمكن إلا بعولمة الثقافة، أي بإقامة عولمة بديلة تقوم في المجال الثقافي على إنتاج ثقافة عالمية، بحيث تجد الخصوصية مكانا لها في هذه المنظومة الكلية. ويقصد بالخصوصية هنا، الخصوصية الموجهة نحو المستقبل و التي تختلف في جوهرها عن الخصوصية الموروثة عن الماضي²⁷.

وإقامة ثقافة عالمية مضادة للثقافة العالمية الإدماجية التي تسعى إلى إقامتها العولمة، يركز في أساسه على إعادة تركيب الثقافات المحلية لبنائها الداخلي. خاصة وأن الاختراق الثقافي لا يعني بالضرورة سلب الثقافة المخترقة لنسقتها الداخلي وقدرتها الإبداعية. ولعل هذا ما يشير إليه د/ برهان غليون في قوله : " إن السيطرة الثقافية لا تعني

²⁷ د/ سمير أمين و د/ برهان غليون، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة. دار الفكر. دمشق.

سوريا. ط(2). 1422 هـ/ 2002م، ص 63

بالضرورة، أعني في كل الحالات وعند كل الثقافات الخاضعة، سلب الثقافات الأخرى اتساقها الداخلي وقدراتها الإبداعية. فبإمكان الثقافات أو كثير منها، بلورة استراتيجيات فعالة، للحد من هذه السيطرة، أو الالتفاف عليها، أو التعامل معها بطريقة تسمح لها بالاستمرار في البقاء والصراع، والمشاركة في الإبداعات الحضارية، كما هو الحال اليوم بالنسبة للثقافات الأوروبية في مواجهة الثقافة الأمريكية. فالثقافات منظومات شديدة التركيب، وقادرة بالتالي على الحركة والتكيف والتأقلم والتجدد باستمرار بقدر ما هي قادرة على التوليف والترقيع أيضاً، ومن الممكن أن تستفيد الثقافة التابعة من الاعتماد على الثقافة المسيطرة، في تطوير ميادين نشاط ووظائف أساسية، تفتقر إليها، أو لا تملك وسائل الرد الناجع عليها، يدخل في ذلك على سبيل المثال بالنسبة للثقافات القديمة، ومنها العربية تطوير منظومات إنتاج المعارف العلمية الضرورية لبقاء الأنساق الاجتماعية²⁸.

إن تطور اللغة متوقف على تطور منظومتها الفكرية والثقافية. ومنه، فتطوير الثقافة العربية لتواكب متطلبات العصر أمر في غاية الأهمية لكي تتطور اللغة العربية. كما أن اللغة عندما يكون وراءها مشروع حضاري واضح المعالم والأهداف، تتقدم وترتقي وتكون لغة

²⁸ د/ برهان غليون ود/ سمير أمين، المرجع السابق، ص 50 و 51

العلوم والتقنيات. هكذا كانت اللغة العربية في ظل ازدهار الحضارة الإسلامية، حيث كان للمسلمين مشروع حضاري واضح الأهداف، متكامل المكونات، متملك لشروط الاقتدار والإمكان الحضاري. فاللغة تتطور عندما يكون أهلها قائلين على ذلك. ولعل اللغة العبرية في العصر الحديث خير مثال على ذلك. فاليهود أحيوا هذه اللغة من الموات على الرغم من أنها لغة ضعيفة، خاصة أنها لم تستخدم منذ قرون طويلة، يقول الإسرائيلي إيرماي: "إن انبعاث إسرائيل، وسرعة تطوير العلوم والتكنولوجيا بها، لا يمكن تحقيقها دون لغة مشتركة كأداة في تبادل الأفكار الحديثة، والمجتمع الصهيوني لا يهدف إلى إعادة بناء وإسكان هذا البلد القديم- الجديد فحسب، وإنما إلى بعث الحياة في العبرية القديمة التي لم يتحدث بها منذ أكثر من ألفي سنة"²⁹ ويضيف قائلاً: "وهكذا، فقد صارت العبرية الوسيلة المشتركة للاتصال، والسلسلة المترابطة الحلقات، والأمل لدى الوافدين الجدد أو المولودين في إسرائيل من أجل خلق ثقافة الأمة اليهودية"³⁰.

²⁹ عثمان سعدي، المسألة اللغوية في الصراع العربي/ الإسرائيلي. ورقة مقدمة للمؤتمر العالمي الذي نظّمته كلية التربية بجامعة الكويت. بعنوان: الأبعاد التربوية للصراع العربي- الإسرائيلي. مركز دراسات الوحدة العربية. 1986 م. بيروت- لبنان. ص 177

³⁰ المرجع نفسه ، ص 177

كما جعلت اللغة العبرية لغة التعليم في الطب والهندسة والعلوم في الجامعات، وهذا راجع إلى اهتمام إسرائيل بهذه اللغة، وتعبئة مائتي خبير لا شغل لهم إلا تتبع ما يستجد من مصطلح لعبرنته في الحين، وإصدار مرسوم حكومي بإلزاميته في التدريس والتأليف وباقي أجهزة التعبير في الدولة³¹. ومنه، فتراجع اللغة العربية اليوم، لا يرجع إلى خصائصها بقدر ما يرجع إلى ضعف أهلها، إذ أنها ترقى برقيهم وبدعمهم لها وتضعف بضعفهم.

لا يمكن أن تصمد اللغة العربية أمام تيار العولمة الجارف بتحدياته التكنولوجية والأيديولوجية، إلا إذا اكتسبت بعدا علميا وعالميا. ولا يكون ذلك إلا بتطويرها في جانبين، وهما:

1- الجانب التقني.

2- الجانب البنوي.

أما الجانب الأول، فالواقع التقني في عصر العولمة يقتضي معالجة اللغة العربية معالجة آلية، بحيث تكون في مستوى اللغات الأخرى الحاملة للرصيد المعرفي من خلال المعلومات وشبكات الاتصال والترجمة الآلية. خاصة أن المقوم الأهم لتنافسية أية لغة، هو قدرتها على إنتاج المضامين

³¹ د/ عبد العزيز عبد الله، إستراتيجية التعريب. "اللسان العربي"، السنة (12) 1975م،

وتروجها على نطاق واسع. فإذا ظلت اللغة العربية بعيدة عن المنتديات العالمية الكبرى، وضعيفة بالانترنت ستبقى مهمشة.

أما الجانب الثاني، فلقد أصبح من الضرورة في عصر العولمة أن نبني قواعد اللغة العربية على دراسات علمية ولغوية وتربوية بعيدة عن العلل الكلامية والتراكيب الصعبة التي تجعل الطالب العربي يقضي معظم حياته العلمية يتعلم اللغة العربية، ومع ذلك يبقى عاجزاً في أغلب الأحيان عن التعبير عن نفسه كتابه أو شفاهة بلغة عربية سليمة، والحال نفسه بين عامة المثقفين وفي وسائل الاتصال والإعلام المختلفة.

فوضع اللغة العربية في مجتمعاتنا العربية، كما يشير إلى ذلك د/ مصطفى محسن، يتطلب إعادة النظر في قواعدها وأساليب تدريسها، وذلك من أجل تجديدها وتبسيطها وتحديثها شكلاً ومضموناً، وجعلها مواكبة للمقتضيات العلمية والتربوية الراهنة، ولتكون لغة قادرة على أن تتجاوب مع اللحظة الحضارية، وأن تشكل بالنسبة للأجيال الجديدة في مجتمعنا بشكل خاص، أداة ميسرة ووظيفة للتعليم والتكوين الذاتي والتواصل الفكري والحضاري المنتج. ومعلوم أن تحقيق هذا المطلب يقتضي سواء على المستوى القطري أو القومي، بلورة سياسة لغوية مبنية على تخطيط تربوي ولساني عقلاني ديمقراطي ممنهج، كما يقتضي على المستوى العلمي بحوثاً علمية معمقة متعددة التخصصات. فالمناهج والمقاربات متكاملة من حيث الغايات والتوجهات، مستهدفة للتطوير

والتجديد والتحديث اللغوي وللتنمية التربوية والثقافية والاجتماعية الشاملة المستديمة والتي تظل في نهاية المطاف هي الهدف المحوري الموجه لأي إصلاح تربوي أو اجتماعي حدائي يصلح إلى أن يكون في مستوى الاستجابة لمطالب المرحلة ورهاناتها المعرفية والحضارية³².

وعندما يصل أهل اللغة العربية بها إلى هذا المستوى، فإن احتكاكها باللغات الأخرى وثقافتها، لاسيما باللغة المهيمنة وثقافتها لن يضعفها، بل يزيدها ثراء وغنى.

الخاتمة:

إن إشكالية المحافظة على اللغة العربية في ظل العولمة بأبعادها المختلفة خاصة البعد الثقافي ، أصبحت تطرح بالحاح. لاسيما مع ارتباط اللغة بالهوية الثقافية. فمصير مستقبل اللغة العربية في خضم هذا التيار الجارف رهين بإصلاحها وبتطويرها في شتى الجوانب، لتواكب مسار

³² د/ مصطفى محسن، التربية وتحولات عصر العولمة: مدخل للنقد والاستشراف. المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء. المغرب. ط (1). سنة 2005م. ص 130 و 13

اللغات الحديثة من جهة والتخلص من التبعية اللغوية الأجنبية من جهة أخرى. وما يستتبع ذلك من تبعية فكرية وثقافية وعلمية. وتطوير اللغة العربية والمحافظة عليها، لا يعني الانعزال والتوقع وهجر اللغات العالمية. بل لابد من تعلمها للتواصل مع الشعوب المختلفة.